التحرر من القيود جـ ٢

عن كتاب انطلاق الروح

للبابا شنوده الثالث

قيود الحس :

وقف أمام القديس مقاريوس الكبير راهب حاربه البر الذاتى حتى ظن أنه تخلص من الزنا و حب المال و الغضب ,
فسأله الأب القديس عما يشعر به اذا رأى امرأة : فقال أعرف أنها امرأة و لكنى أهرب لئلا أشتهيها .
فسأله أيضا عن شعوره اذا رأى مالا ملقى فى الصحراء , أ يستطيع أن يفرق بينه و بين الحصى , فأجاب بأنه يستطيع ذلك و لكنه يمنع نفسه من محبة المال .
و سأله القديس ثالثا عن شعوره اذا أهانه أحد , فأجاب بأنه يحس أنه أهين و لكنه لا يبيت الغيظ فى قلبه .
و هنا التفت القديس الى الراهب و أخبره أنه ما يزال تحت الآلام , و أنه فى حاجة الى جهاد أكثر , و بدأ يعظه ...
انها قيود الحس يا صديقى القارئ التى تجعل المرء يفرق بين الرجل و المرأة , المتقدمة فى السن و الفتاة الشابة , و بين الفتاة " الجميلة " و " غير الجميلة " .
إنها قيود الحس أيضا التى تجعله يفرق بين النقود و الحصى ... و ماذا اذن عن الإهانة و المديح ؟

ذهب أحد الرهبان الى القديس مقاريوس و طلب منه نصيحة :
فأمره القديس أن يذهب و يمدح الموتى فذهب و مدحهم فلم يرد عليه منهم أحد , فأمره القديس أن يذهب و يشتد عليهم فى القول , ففعل ذلك فلم يرد عليه أحد .
فقال القديس للراهب : و هكذا أنت مادمت قد مت عن العالم فيجب أن تشبه هؤلاء الموتى , لا تتأثر فى شئ , و انما سيان عندك ان مدحك الناس أو ذموك ...

و فى احدى المرات أحضر أحد الأثرياء هبة مالية الى الدير لتفرق على الرهبان , و لكى يقدم رئيس الدير لهذا الثرى عظة عملية , وضع المال جانبا و أمر بدق الناقوس فاجتمع الرهبان , فطلب اليهم الأب الرئيس أن يصنعوا محبة و يأخذوا ما يحتاجونه من هذا المال , و لما نظر الرهبان الى الذهب كما ينظرون الى الحصى و لم

يأخذ أحد منهم شئيا رغم الالحاح الشديد , تأثر الرجل الثرى جدا , و طلب أن يترهب ...

ان العالم يا أخى الحبيب و الجسد أيضا قد أرسب على احساساتنا رواسب عديدة كان من نتائجها أن أشياء عالمية كثيرة مادية و جسدية أصبحت تبدو لنا فى صورة أجمل من غيرها و أكثر جاذبية و أعمق أثرا فى النفس . و عندما تسمو الروح , و عندما تنطلق الى حد ما مما يعرقل طريقها من القيود , عند ذلك سيرقى احساسها جدا , أو قل ستنطلق من الحس العالمى , و تفهم الأمور بادراك آخر روحى .

هل اذا طال بك السفر بعيدا عن أسرتك , ثم قابلتهم بعد هذا الفراق الطويل فعانقوك فى محبة و فى شوق زائد , هل وسط تلك المحبة التى سبحت فيها روحك , ستحس أن أباك الرجل يختلف عن أمك المرأة , و أخيك الفتى , و أختك الفتاة . و هل عامل الانقاذ فى الحرائق أو حوادث الغرق يحس أن الجسم الذى يحمله منقذا اياه من الهلاك , هو جسم فتى أو فتاة , أو رجل أو امرأة ؟ ! كلا بل أؤكد لك أنه لو أحس شيئا من هذا لعرض نفسه للموت هو و من يعمل على انقاذه .

ألا ترى اذن أن الروح تسمو على الحس , و أن هناك أوقات يتعطل فيها الحس كليا أو جزئيا لانهماك الروح فيما هو أعظم ؟ ... و هكذا أنت فى حياتك الروحية عليك أن تتخلص بقدر الامكان من قيود الحس . و عندئذ ستنظر الى الأمور بمنظار آخر : سوف لا تحاربك الشهوة , شهوة العين أو شهوة الجسد أو شهوة المال أو شهوة النساء أو تعظم المعيشة . بل تكون كملائكة الله فى السماء , تنظر الى كل شئ بتلك " النظرة البسيطة " التى قال عنها السيد المسيح فى عظته على الجبل : " ان كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيرا " ... (مت ٦ : ٢٢) .

على أن هذه الأفكار لم تكن موضوع الحديث بين أبى الراهب و بينى , فقد كنا نتكلم فيما هو أعمق من هذا , فى موقف الحس عند تفهم الالهيات و التأمل فيها : ان الاحساس الجسدى جسدى و محدود لذلك فهو لا يستطيع أن يفحص الله الروح غير المحدود . ثم ان الحس البشرى عرضة للخطأ , و كثيرا ما يخطئ فى التمييز بين الخطأ و الصواب .

لقد رجع التلاميذ الى السيد المسيح فرحين و قالوا له : " حتى الشياطين أيضا تخضع لنا باسمك " فرد عليهم السيد : " لا تفرحوا بهذا " (لو ١٠ : ١٧ , ٢٠) اذ أن احساسهم كان خاطئا .

أنظر أيضا الى القاتل الذى ثأر لنفسه أو انتقم لشرفه , ألا يغمره احساس بالرضى كأنه أتى عملا جليلا . انه حس خاطئ . و أنت كذلك يا أخى المحبوب قد تراودك فى صلواتك و أصوامك و خلوتك و تأملاتك احساسات كثيرة : امتحنها جيدا فقد تكون احساسات بشرية غير سليمة ... و حاول أن تطلق روحك من قيود الحس .

بقى أن أقول لك الاحساس بالعالم و موجوداته يتعطل عند الاستغراق فى الالهيات . كانت حنة تصلى فى الهيكل . و كانت منسكبة النفس أمام الله فلم تشعر بما يدور حولها حتى أن عالى الكاهن حسبها سكرى فقال لها : " الى متى تسكرين . قومى انزعى خمرك عنك " . (١ صم ١ : ١٣ , ١٤) .

و هكذا أنت : ان كنت منصرفا بكليتك الى الصلاة أو التأمل فسوف لا تشعر اطلاقا بما يدور حولك . قد يتكلم البعض الى جوارك و قد تقوم ضجة . و قد تتهادى مناظر كثيرة , و أنت لا تدرى عن كل ذلك شيئا لأنك منهمك فى أمور أخرى فى عالم الروح . ان حسك معطل نسبيا لأن روحك هى التى تعمل . هل يقول البعض عن هذا انه اختطاف الروح ؟ لا أدرى , و لكنى أعلم أن القديس يوحنا القصير كانت تمر عليه فى تأملاته فترات يتكلم فيها الناس اليه فلا يسمع صوتهم و لا يدرى ماذا يقولون , و يسأله السائل مرة أخرى فيجيبه القديس " ماذا تريد يا ابنى ؟ " و يكرر السائل طلبه و لا يسمعه القديس أيضا . لأن روحه منشغلة بأشياء أخرى أهم و أعمق و ألصق بالسمع و الذاكرة . و كانوا يسألونه أحيانا أسئلة فيجيبهم عنها بتأملات لاهوتية لا علاقة لها بما يسألون عنه , لأنه لم يسمع ما قالوه . كانت روحه منطلقة من الحس ...